6

صدمة كبيرة

obeikandl.com

obeikandl.com

تظل نكسة ١٩٦٧م الطعم المر في مسيرة ثورة يوليو وعبد الناصر، والعلامة الفارقة بين الانكسار والحلم، لدي الجيل الذي عاش معارك الثورة وتغني بها..وتظل أيضًا صفحة هذه النكسة وما تلاها من سنوات الاستنزاف ناصعة البياض في قيمتها في حياة أم كلثوم التي ما لبثت أن نفضت الحزن والانكسار لتجوب البلاد شرقًا وغربًا من أجل مصر.

غنت أم كلثوم حتى النكسة لمعارك الثورة في الداخل والخارج..غنت للجلاء والسد العالي، وتأميم القناة، والتعبئة الجماهيرية أثناء العدوان الثلاثي عام ٥٦.. غنت للوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٨م ثم الانفصال عام ١٩٦١م.. واتساقا مع البعد القومي للثورة.. غنت للعراق في ثورته ضد عبد الكريم قاسم «شعب العراق الحر ثار... وبإيده حقق الانتصار»، وغنت للثورة الفلسطينية مع انطلاق معاركها المسلحة..

ويقول سعد الدين وهبه: سألتها ذات مرة.. لماذا لم تغني للقضية الفلسطينية؟ فأجابت: لما يدافعوا عن وطنهم.. ومع بدء المعارك المسلحة للثورة الفلسطينية قدمت قصيدة نزار قباني: «أصبح عندي الآن بندقية».. غنت للجزائر واليمن.

كانت الحصيلة حتى النكسة مساهمة كبيرة قال عنها المؤرخ والناقد الموسيقي فرج العنتري: «خرجت الأغنية من دائرة الـ «أنا» إلى دائرة الـ «نحن».. تلك الدائرة التي دخلت بالوطن وبالمواطنين في دائرة الحب العصري، الذي كان محصورًا من قبل في الغزليات والمعاينات.. تلك الدائرة التي صدحت فيها التعابير عن بذل الدم في سبيل حياة الأهل، والعمل، والاستقلال، وفي حراسة المقومات الوطنية من الأرض والعرض، وفي التصدي بكل أسلحة القتال لمن يعتدي على هيبة المقدسات القومية، وفي الزهو باحتضان الوجود البهيج لمعطيات الحياة اليومية لثورة ٢٣ يوليو، بأصدق مدلولات الكلام..ومن أحلى ترنيمات الأنغام».

هجر الحلم أم كلثوم مع النكسة... كما هجر الملايين.. غير أن طعم المرارة في حلقها كان مختلفًا..فهي التي غنت لتشحذ الهمم.. وتبشر بالغد، وحاصرتها كغيرها علامات استفهام حول ما تغنت به في الماضي.. هل كان صدحًا خارج السرب؟.. أم أن السرب كله كان يكذب؟

كان تواصلها مع الثورة وقائدها قد بلغ ذروته في التقدير إلى درجة أنها - كما يقول سعد الدين وهبه - كانت من الشخصيات القليلة التي تحدثت برفقة الصحفي اللبناني سعيد فريحة مع عبد الناصر في أمر اعتقال مصطفي أمين. واستمع إليها عبد الناصر رغم قسوة هذا الموضوع عليه.. أضف إلى هذا عمق العلاقة التي جمعتها بالسيدة تحية كاظم قرينة جمال عبد الناصر - كما أشرنا من قبل - والتي وصلت إلى درجة يقول عنها محمد الدسوقي: «كانت السيدة تحية تزور أم كلثوم في فيلتها بالزمالك.. وأم كلثوم تزورها في بيتها بمنشية البكري»، بل إنها أحيانًا كانت تبيت هناك بدعوة من السيدة تحية..كما أنها كانت مع قرينة الرئيس ضمن أي وفد نسائي يقابل زوجة رئيس ما في بيت عبد الناصر»، ويروي عمار الشريعي حكاية استمع إليها من أحد المقربين منها.. «كانت أم كلثوم تجلس مع السيدة تحية في منزلها، بمنشية البكري.. ودخل عليهما عبد الناصر.. فداعبته أم كلثوم قائلة: «مش تخبط يا ريس... اتنين ستات قاعدين مع بعض» فضحك وقال لها: « حاضر يا ست»... وخرج ثم دق على الباب ليستأذن في الدخول.

أي درجة يمكن تصورها بعد ذلك من واقع مرارة النكسة عليها.. وهي تري القائد الذي وضعت معه وفيه كل أحلامها يعيش أكبر انكساراته، وانكسارات أحلامه التي دغدغت مشاعر ملايين العرب من المحيط إلى الخليج.

كانت لها كما يقول سعد الدين وهبه طقوس خاصة حين تقع لها كارثة ما.. تنزل إلى «بدروم» المنزل.. لا تتحدث مع أحد، ولا تقابل أحدًا، تعيش مع نفسها

وتفكيرها فقط.. وحين تأكدت من خبر النكسة مارست عادتها، وبرفقتها مذياع، ومنه استمعت إلى خبر تنحي عبد الناصر.. فانتفضت... تقول أم كلثوم:

«كنت منذ الساعة التي تأكدت فيها أنباء النكسة، قد خاصمت النوم، ولم يعد لي هم بالليل ولا بالنهار، إلا أن أتفرغ لدموعي، وأتوجه إلى الله في صلاتي وضراعتي أن يمدنا ببصيص من الأمل في إنقاذ مصر.. فلما أعلن « جمال عبد الناصر، نبأ تنحيه عن الحكم، فقدت الأمل في إطلاله هذا البصيص من الأمل، وكنت لا أفتأ اتصل بأصدقائي، وأصدقائي يتصلون بي، ليل نهار لعل أحدنا يجد عند الآخر نبأ يكشف الغمة، ولا حديث لنا جميعًا إلا عن المأساة التي ازدوجت وأطبق عليها اليأس بتنحي « جمال » عن مكانه.. وفي تلك الليلة، قلت لصديقي صالح جودت، ونحن نتحدث بالتليفون: إن الأمل الباقي، هو أن يبقي جمال عبد الناصر في مكانه. وبعد منتصف الليل، عاود صالح جودت الاتصال بي، وتلا عليّ هذا المعني منظومًا في أنشودة تحمل صورة نداء إلى جمال، مطلعها:

قم واسمعها من أعماقي / فأنا الشعب / أبق فأنت السد الواقي / لمني الشعبْ / ابق فأنت الأمل الباقي / لغد الشعب / ابق فأنت حبيب الشعب

وأملي على كلمات الأنشودة بالتليفون، وأيقظت «رياض السنباطي»، وأمليتها عليه بالتليفون أيضًا.. ولم ينم السنباطي ليلته.. وفي الصباح، كان قد انتهي من تلحينها.. وبعد يوم واحد سجلتها وقدمتها الإذاعة للجماهير.. جماهير ٩ و١٠ يونيه.. التي خرجت عن بكرة أبيها، في حلكة الإظلام، وتحت وابل من قنابل العدو، تطالب ببقاء جمال عبد الناصر».

ويقول محمد الدسوقي: «كانت صدمتها أكبر.. غرقت في الحزن، حبست نفسها في حجرة بدروم الفيلا.. أطفأت النور، وربطت رأسها بمنديل لعله يخفف الآلام.. لا تحدث أحدًا.. ولا تأكل.. لكنها بعد فترة خرجت من البدروم.. وسمعتها تقول:

لازم نلم البلاد العربية حوالين مصر».

يشدد أحمد شفيق كامل على أنها كانت شخصية مخيفة في امتيازها.. شئ عملاق بلا حدود، خاصة في هذه المرحلة، يقول: «عظيمة في كل شئ متعلق بفنها.. الإعداد.. البروفات.. الحفلة.. وإذا انتهت من كل هذا نجدها الإنسانة الريفية البسيطة الساذجة بنت طماي الزهايرة.. أيام النكسة كان كل مصري عنده إحساس بالعجز.. وكأن خنجرًا مغروسًا في قلبه.. بالطبع كان طعم المرارة أكبر في حلوق الفنانين الذين تغنوا للثورة وبها.. أما هي فكانت «حاجة مش معقولة».. تسأل.. تتصل بكل الناس كي تعرف إيه اللي ممكن يتعمل.. يا فلان..ياعلان.. نعمل إيه؟..أنا مش عايزة الاقتراحات اللي أنا أعرفها.. عايزة اقتراحات ثانية ..هكذا قالت لي».

قدمت على الفور لحنها: «أبقي فأنت الأمل الباقي لغد الشعب».. وقدمت:

«قوم بإيمان وبروح وضمير / دوس على كل الصعب وسير».. وذلك في محاولة لاستنهاض الهمم، وكسر شوكة اليأس.

جاء هذا في محاولة منها للإبقاء على كمية الرنين الصادح في الغناء، الذي يقول عنه الناقد والمؤرخ الموسيقي فرج العنتري:

«كان الرنين صادحًا في أغاني البلد قبل النكسة.. حيث الصياغة من حيث البناء والموضوع تقوم على الـ «نحن»، وأمل الجميع في تحرير الأرض والعرض.. والحض على ممارسة الصمود والاستنزاف..غير أن الملاحظة تكمن بعد النكسة في دخول ثلاثة روافد في النشاط الغنائي.. الأول: رافد التماسكيين في عمليات تحركهم الناجح بالنغمة العربية.. من حنجرة أم كلثوم في سفرياتها الدورية إلى مختلف عواصم العرب لإثبات استمرارية الوجود الكلي للعرب بفاعلية، وعلي كل ساحة الوطن الكبير من المحيط إلى الخليج، ورافد الهروبيين الذين صدمتهم النكسة بقوة فوق طاقتهم الغضروفية، فلجأ بعضهم إلى الهروب النفسي من بيئة الحادثة وسيرتها

بالاغتراب بالتعامل مع أغاني الديسكو الآتية من لغات أجنبية.. أما الرافد الثالث فتمثل في لجوء البعض إلى ممارسة نوع آخر من الاغتراب باستهلاك «العدويات» في تنغيم وترقيص اللامعقول من الألفاظ والأسماء والحروف.»

وجهة نظر العنتري، تطرح سؤالا هو ،كيف تربعت أم كلثوم على رافد التماسكيين؟.

يجيب أحمد شفيق كامل: «رفعت أم كلثوم بعد النكسة شعار «الفن من أجل المجهود الحربي»، وقالت: «لن يقفل لي جفن وشعب مصر يشعر الهزيمة»، وجاء هذا اتساقًا مع جهود عبد الناصر لإصلاح ماتم، ورفعه شعار «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة»، وشعار «ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة».

طافت أم كلثوم عواصم المحافظات المصرية، وعواصم الأقطار العربية لهذا الغرض..وذهبت كل الحصيلة المالية إلى المجهود الحربي. في المنصورة حققت إيرادًا قدره ١٢٥ ألف جنيه، وفي دمنهور ١٣٥ ألف جنيه، وفي الإسكندرية ١٠٠ ألف، وفي طنطا ٢٨٣ ألف جنيه.

خارج مصر.. جابت البلاد العربية، وذهبت إلى باريس، ثم موسكو في حفلة لم تتم.. كان استقبالها في كل العواصم في حفاوته لا يقل عن استقبال الرؤساء.. بدءًا من حرص الحكومات العربية على أن يكون في استقبالها مسئول رسمي... انتهاء بخروج الجماهير الغفيرة لاستقبالها.

غنت في تونس بحضور رئيسها آنذاك الحبيب بورقيبة.. وفي المغرب بحضور العاهل المغربي الراحل الملك الحسن الثاني، وفي الخرطوم بحضور كل القيادات السياسية السودانية.. نفس الأمر في لبنان وليبيا، وأبو ظبي والكويت.. في باريس قال الرئيس الفرنسي الراحل شارل ديجول: «لمست معها أحاسيسي وأحاسيس الفرنسيين جميعًا»...وحققت من هذه الحفلات ٢١٢ألف جنيه استرليني ذهبت جميعها إلى المجهود الحربي.. إلى جانب ذلك كانت تجمع التبرعات التي وصلت إلى

مئات الآلاف من الدولارات.. وفي الكويت مثلًا كانت كل التبرعات للمجهود الحربي من سبائك الذهب.. جمعت ٣٥ كيلو من الذهب الخالص..كان هذا يتم في الوقت الذي يستمع فيه الجنود على الجبهة إلى رسالة يومية بصوتها عبر الإذاعة.

ذهبت أم كلثوم إلى هذه البلاد تسبقها تلقائيتها، ووطنيتها، وعشقها لمصر وعروبتها.. سألتها الإذاعية الراحلة سلوى حجازي أثناء رحلتها إلى فرنسا: ما هو المكان المفضل لك في باريس؟

أجابت بلغة عامية بسيطة: المسلة لأنها من عندنا.

أثناء زيارتها للخرطوم.. سألتها الإذاعية الراحلة أماني ناشد عن انطباعاتها عن السودان وأهله؟

أجابت: السودانيون دول أهلنا.. إحنا وهم إخوان؛ لأننا إحنا الاثنين أولاد النيل.

وأبدت أماني ناشد ملاحظة حول طريقة أكل السودانيين للأرز في إحدى الحفلات الرسمية التي أقيمت على شرف سيدة الغناء العربي الزائرة، حيث كان السودانيون يقومون بتكوير الأرز بين أصابعهم بطريقتهم التقليدية ثم يقذفون به إلى الفم.

قالت أم كلثوم: وإيه الغريب في كده.. ما أنا كنت بأكله بنفس الطريقة في طماي الزهايرة.

ويؤكد الكاتب الراحل يوسف الشريف أحد أبرز الصحفيين المصريين الذين تخصصوا في الشأن السوداني والذي رافق أم كلثوم في رحلتها للسودان على أن غناءها في الخرطوم كان حدثا ثقافيًا مقدرًا يفوق كل إنجازات أجهزة الإعلام، والثقافة والدبلوماسية المصرية منذ استقلال البلدين في الخمسينات.

ويتذكر الشريف: «عايشت السيدة أم كلثوم عن قرب على مدي أسبوع كامل عندما دعتني إلى رفقتها خلال رحلتها الغنائية في السودان في إطار مشروعها القومي لجمع الأموال العربية الخاصة بإعادة بناء الجيش المصري إثر نكسة ١٩٦٧م، قلت لها

ونحن في طريقنا جوًا إلى الخرطوم : أن أهل السودان لا يحبون أغاني الهجر والصد، والفراق، ولا يطيقون الاستسلام طويلا للأحزان والنكد والخصام، لأنهم يعشقون المرح، والغناء، والرقص، وأفراح الحب، ونشوة اللقاء، وقلت لها: إن أهلنا في السودان ينتشون طربا للغناء، وغالبًا ما يمارسون أسلوب «الشيل» أي: ترديد الغناء والتصفيق وراء المطرب وأن وجدانهم مزيج بين العربية والأفريقية.»

أخذت أم كلثوم بنصيحة الشريف الذي يستكمل شهادته قائلاً: «وهكذا حين وقفت أم كلثوم على المسرح القومي في أم درمان اعتمدت أسلوبًا جديدًا وغير مسبوق في غنائها، إذ برغم أن أغنياتها طويلة زمنيا وبطيئة الإيقاع إلا أنها نجحت بذكائها، وحضورها الطاغي، وحسها المرهف في السيطرة على مشاعر المستمعين وجذبهم إلى تذوق أنغام سلم الموسيقي العربية الخماسي البطئ، وأعفت السودانيين من ممارسة عادة «الشيل» عبر ترديد كوبليهات أغنياتها وراءها، وقنعوا باستعادة إيقاعاتها السريعة الراقصة، بل إنها كانت غاية في السعادة والترحيب بجمهور المستمعين في الترسو عندما اهتزت أجسامهم طربًا ونشوة ورقصًا».

ويتذكر الشريف: «لذلك كتبت عن لياليها الخالدة في الخرطوم تحقيقًا بعنوان: «أم كلثوم تسودن أغانيها»، وذلك أن أغنياتها كانت ولأول مرة مزيجًا بين السلم الخماسي في الموسيقي السودانية، والسلم السداسي في الموسيقي العربية، وأحسن الظن أنه كان تزاوجًا لا فراق بعده أثمر هذه المشاعر التاريخية التي وحدت بين الوجدان المصري والسوداني عبر صوتها الساحر» .

ويري الشريف :« زيارة أم كلثوم وغناؤها في السودان كان حدثا ثقافيا مقدرا يفوق كل إنجازات أجهزة الإعلام والثقافة والدبلوماسية المصرية منذ استقلال البلدين في الخمسينات».

تبقي حفلتها في باريس على مسرح «الأوليمبيا» أكبر مسارح فرنسا، نموذجًا في

الوطنية مهما كان الثمن.. كان مدير المسرح «بيرونوكوكاتديس» يهوديًا، وحين انتهت الوصلة الأولي، اندفع إليها أثناء الاستراحة.. يطلب منها أن تمنع مقدم الحفل الإذاعي الراحل جلال معوض من حديثه أثناء تقديمه لها، والذي أشار فيه إلى تحرير القدس، وحتمية الانتصار على إسرائيل، وتحرير كل الأراضي العربية المحتلة، واعتبر كوكاتديس أن هذا الكلام لا يصح؛ لأن الحفلة فنية، وليست مناسبة وطنية.. لم تهتز أم كلثوم من هذا الكلام، بل رفعت رأسها في شموخ وهي تجلس على الكرسي، وقالت له: إنها مناسبة وطنية، وإن ما تفعله مرتبط بقضية بلادها، وإن ما جاء بها إلى باريس ليس الغناء، وإنما واجب وطني يقوم به الفن في أوقات المحن، وزادت في قولها: أنا طلبت من مقدم الحفل جلال معوض أن يقول ما قاله، وإمعانا في التأكيد على موقفها، أضافت أم كلثوم لمدير المسرح: إذا كان حديث مقدم الحفل لا يروق لك فأنت غير مجبر على قبوله.. وبإمكاننا إلغاء الحفل، وإشارت إليه بأنه تحله من كل الالتزامات المبرمة في العقد الموقع بينهما، ثم التفتت إلى أعضاء فرقتها الموسيقية قائلة: «لموا الآلات يا أولاد».

تراجع كوكاتديس على الفور حين شاهد إصرار أم كلثوم، وتصميمها على موقفها مهما كان الثمن، وقالوا لها: «سيدتي ليكن لك ما تريدين» وعلي الفور عاد صوت جلال معوض يقدم الوصلة الثانية، مؤكدًا حتمية تحرير الأرض المحتلة، والانتصار على إسرائيل.

كان الكاتب الصحفي محمد سلماوي طرفًا في هذه القضية في مرحلة توقيع العقد معها.

يقول سلماوي: جاء كوكاتديس صاحب مسرح «الأوليمبيا» أشهر مسارح باريس ليعرض على أم كلثوم تقديم حفلتين غنائيتين عليه، وكان هذه أثناء قيامها بتقديم الحفلات في بلاد العالم، وتحويل دخلها لصالح المجهود الحربي.. طلبت

أم كلثوم من كوكاتديس أعلي أجر دفع في هذا المسرح الذي غنت عليه أسطورة الغناء الفرنسي إديث بياف، وكذلك إيف مونتان، وشارل أزنافور، وجوليت جريكو وغيرهم، والذي كان يعتبر أعلي محطة فنية في الرحلة الفنية لأي مطرب فرنسي.

يضيف سلماوي: قابلت أم كلثوم لأول مرة في نفس تلك الفترة، حيث كنت أحضر مع شقيقتي إحدي حفلاتها بسينما قصر النيل، وعلم شاعر الشباب أحمد رامي أثناء حديث معه أننا أحفاد جدي لوالدتي محمد شتا الذي توفي عام ١٩٤٦م، فأصر على أن يقدمنا لأم كلثوم، وما بين الوصلتين سحبنا أحمد رامي من أيدينا، ودخل بنا عليها، فقد كان - كما عرفت بعد ذلك - يهوي دائما البحث عن أي عذر ليدخل إليها أثناء الاستراحة، وقال رامي لأم كلثوم: إنها أحفاد فلان.. هل تتذكرينه؟ فحيتنا تحية حارة.. وقالت: الباشا الكبير؟.. لا أنسي أبدًا أي إنسان كان له الفضل علي .

كان محمد شتا كما يقول حفيده محمد سلماوي: رجل أعمال عصاميًا ترك عائلته في دسوق بكفر الشيخ، وجاء إلى القاهرة فصنع الملايين بساعديه وحده، وكان صديقًا حميًا لطلعت حرب باشا، ومن هواة أم كلثوم، وسمع من طلعت حرب أنه بعد نجاح فيلم «وداد» عام ١٩٣٦م، يفكر استديو مصر في إنتاج فيلم جديد لأم كلثوم في العام التالي، وهو فيلم «نشيد الأمل».. فقال محمد شتا: بل يجب الشروع في هذا الفيلم فورًا، وقرر محمد شتا أن يتبرع بميزانية إنتاج الفيلم بالكامل لحساب الاستديو الذي أسسه صديقه طلعت حرب، وتم بالفعل إنتاج فيلم «نشيد الأمل» عام ١٩٣٧م، وظلت أم كلثوم تذكر هذا الجميل، حتي أنها أهدته إحياء حفل زواج كبري بناته إلى والدي.

يضيف سلماوي: حين قابلت برونوكوكاتديس في القاهرة، وعلم مني أنني قابلت أم كلثوم أخيرًا، رجاني أن أتصل بها تليفونيًا لأخبرها، بأنه قد وافق على جميع طلباتها

المتعلقة بالأجر، واتصلت بالرقم الذي أعطاه لي.. طلبت التحدث إلى السيدة أم كلثوم فجاءني صوتها الهادئ الوديع، فقد كان لها صوتان... الصوت الذي نعرفه في الغناء الهادر كالشلال، والذي يكتسح كل ما في طريقه، والصوت الذي يعرفه من يحادثونها، فصوت الكلام عندها كان دائمًا هامسًا رقيقًا.. وإن كان واثقًا من نفسه.

قلت لأم كلثوم: كنت سيادتك طلبت من مسيو كوكاتديس.

قاطعتني بسرعة: بل هو الذي طلب مني.

قلت: أقصد أنه كان لك طلبات محددة، وطلب مني إبلاغك أنه موافق عليها جميعًا.

وهكذا تحدد موعد للقاء صاحب «الأوليمبيا» مع أم كلثوم حيث تم توقيع العقد بأعلى أجر دفعه المسرح حتى ذلك التاريخ، وقد كان لأم كلثوم بعض الطلبات الأخرى، مما يختص بأعضاء فرقتها الموسيقية وإقامتهم في باريس، وتمت الاستجابة لها جميعًا.

كانت سبب لجوء كوكاتديس إلى سلماوي هو اللغة لتسهيل التفاهم مع أم كلثوم، حيث كان لا يتحدث إلا الفرنسية وبعض الإنجليزية، يقول سلماوي: لم تكن هناك مشكلة لغة بالنسبة لأم كلثوم حيث كان بإمكانها التحدث إلى كوكاتدس بالفرنسية، إذا أرادت.. فقد تمكنت ابنة قرية طماي الزهايرة من تعليم نفسها ليس فقط اللغة الفصحى والشعر الجاهلي، الذي كانت تعشقه، وإنما أيضًا اللغة الفرنسية بالقدر الذي يمكنها أن تتفاهم بها، وتعبر عما تريده، وقد لاحظ ذلك من صاحبوها في باريس، ومن بينهم الإذاعية الرحلة سلوى حجازي، والتي كانت تجيد الفرنسية كأهلها، لم تتحدث أم كلثوم مع كوكاتديس إلا بالعربية.. وكان عليه دائمًا أن يبحث عمن يترجم له ما تقوله «مدام أم» كما كان يسميها، فقد كان يتصور، أنه «أم» هو أسمها الشخصي، أما «كلثوم» فهو اسم والدها، ولم يكن يناديها إلا باسم «مدام أم».

يتساءل سلماوي: أليس في موقف أم كلثوم من لغتها العربية معني ما.. وهل لو كانت المطربة غير أم كلثوم كانت ستتمسك بلغتها؟!

لم يقف عطاء أم كلثوم في هذه المرحلة عند موقفها الحاسم بشأن ما قدمه جلال معوض على المسرح، أو تمسكها بلغتها العربية، رغم إجادتها الفرنسية، وإنما انتقل إلى أشياء بسيطة لكنها تحمل دلالات عميقة.

يقول سعد الدين وهبة: اتصلت من باريس بوزير الثقافة، د.ثروت عكاشة تخبره أن بحوزتها ٥٠٠ جنيه إسترليني، وكان أجرها قد تم تحويله إلى المجهود الحربي.. قالت لثروت: إذا كانت الوزارة تحتاج إلى عملة صعبة لشراء أي شئ، فسوف أعطي لكم الـ ٥٠٠ جنيه الإسترليني، على أن توفروا لي بدلاً منها عملة محلية حتى أقدمها للقوات المسلحة.. وجمعنا ثروت عكاشة وأخبرنا بذلك، وقالت: أم كلثوم وفرت لنا العملة الصعبة وشوفوا ممكن نشتري إيه في حدود المبلغ الذي أخبرتني به.

كانت أم كلثوم تواصل جولاتها وحفلاتها وجهدها لأجل مصر في الوقت نفسه لا تكف في أي قول عن إبداء قلقها على عبد الناصر.. قالت للكاتب محمد وجدي قنديل: إنني أخاف عليه من كثرة الضغوط والهموم التي يحملها فوق رأسه، وصدمة ٥ يونيو كانت عنيفة وكبيرة وهزتنا.. فما بالك بالزعيم الذي تحمل المسئولية وحده عما حدث.. وأضافت: «أنا أعرفه عن قرب، وأعرف أن يكتم كل شئ بداخله، ويحتفظ بأحزانه وآلامه لنفسه ولا يبوح بها.. إنه كبرياء الزعيم..وعندما سألت السيدة تحية عن حاله لأطمئن عليه أخبرتني أنه لا يتكلم في البيت، ويخلو إلى نفسه طويلًا في غرفة مكتبه المجاورة لغرفة نومه، ويواصل العمل ولا ينام قبل الفجر، ويصحوا مبكرًا لمتابعة الموقف ويباشر كل شيء بنفسه لإعادة بناء الجيش المصري.. هو صعيدي ولا ينسي ثأره ورد الاعتبار لبلده».. وأضافت لوجدي قنديل : «صدقني أنا خائفه عليه وقلبي معه.. وعندما طلبت منه الموافقة

على حفلات المجهود الحربي قلت له: أري أن أساهم بما أقدر عليه في المعركة وهو صوتي.. ورحب بموقفي وقلت له: يا ريس ده واجب وطني ويا ريت أقدر أحمل سلاح.. فضحك قائلًا: صوتك أقوي من المدافع».

وتقول في موضع آخر :

كنت أعرف أنه متعب القلب، ومع هذا فإنه يتحمل من روحه وجسده ما فوق طاقته لخدمة مواطنيه ورفعة شأن وطنه. وأمنت به وبما يفعل. وفي حدود طاقتي، حاولت أن أحذو حذوه. وأتخذ منه أسوة حسنة لهذا، أبيت أن أستسلم لليأس: النكسة. لم يكن أمامي إلا أحد أمرين فإما أن ألتزم الصمت، وأقبع في ركن من الانهيار النفسي أو أن أمضي بسلاحي – وهو صوتي – أبذل ما أستطيع من جهد من أجل المعركة.وأخترت الأمر الثاني.. أحسست بأنني أكون سلبية لو امتنعت عن الغناء.. وأحسست بأنني أقف وراء رسالة عبد الناصر، لو غنيت داخل الحدود، وخارج الحدود لأرفع صوتي باسم وطني، وأجمع ما أستطيع أن أجمع من عدة ومن عتاد من أجل المعركة، لعلي أرد بعض جميل مصر، وبعض جميل البطل الذي يحترق من أجل مصر، والذي كرم الفن أجمل تكريم، والذي زين صدري بأرفع وسام في الدولة وأعز قدري بجائزة الدولة التقديرية للفنون.. هذه الجائزة التي أحسست أن عبد الناصر لا يكرمني بها وحدي، وإنما يكرم بها جميع إخواني، خدام الفن ولهذا تبرعت بمنحها المادية لصندوق الفنانين.

وبهذا غنيت في كثير من المحافظات بعد العدوان.

ثم غنيت في ليبيا، وتونس، والمغرب، وفي السودان، ولبنان، والكويت، وباريس.

وكان آخر المطاف في موسكو..ذهبت لأغني لهؤلاء الأصدقاء الذين وقفوا معنا في المعركة.

ولم أكن أدري ما يخبئ القدر وأنا في موسكو.. إلا حينما أيقظني ابن أختي في

الصباح الباكر وهو يجاهد نفسه ويجالدها ليلمس الوسيلة التي يقول لي بها: أن عبد الناصر قد ذهب إلى لقاء الله.. وأن مصر قد فجعت في أعز ما تملك.

كانت موسكو هي محطتها الأخيرة في حفلاتها الأخيرة من أجل المجهود الحربي.. وجاءت البداية بحوار صحفي لها لصحيفة البرافدا.. الصحيفة الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوفيتي.. والأولي هناك، وكان سعد الدين وهبة طرفًا رئيسيًا في هذه المحطة.

يقول سعد: ذات يوم اتصل بي مندوب جريدة اليرافدا السوفيتية في القاهرة، وقال: إنه يريد أن يجري حديثًا صحفيًا مع أم كلثوم، وأن البعض دله على لأكون وسيطًا في هذا الطلب لأنه عرف أني أقابلها كثيرًا، وأكتب قصة حياتها، وقابلتها في نفس اليوم وأبلغتها برغبة مراسل البرافدا، وسألتني عن أهمية الصحيفة، فشرحت لها قيمتها في الاتحاد السوفيتي.. وسألتني هل أجريت حديثًا واحدًا فقط مع الرئيس عبد الناصر؟ ووافقت أم كلثوم وطلبت مني أن أحضر اللقاء وأذكر أنها حددت يوم الثلاثاء من نفس الأسبوع للمقابلة، وأبلغت الشاب الذي فرح فرحًا شديدًا، وطلبت منه أن يمر على بيتي لنذهب معًا إلى بيتها، وفي الموعد المحدد قدمت لها المراسل، وجلسنا وسألتني عن اللغة التي يتحدث بها.

فأجبتها:

- يجيد الإنجليزية.

قلت ذلك وتأهبت لمغادرة البيت بعد أن انتهت مهمتي فإذا بها تقول:

- إنجليزي.. تبقي تقعد عشان تترجم.

وكانت المرة الأولى التي أعرف فيها أنها لا تعرف الإنجليزية رغم إجادتها للفرنسية إجادة تامة.

بدأ المراسل ينطق الأسئلة بالإنجليزية، وأترجمه إليها بالعربية ثم أسمع ردها

بالعربية لأترجمه للمراسل بالإنجليزية.

وفجأة وأثناء الحديث توقفت وسألتني بالعربي.

ـ أنا باعُكْ. (تعني أنها تقول أي كلام)

ورددت: بالعكس أنت بتقولي كلام رائع جدًّا.

عادت تسأل: طيب ليه الرد اللي أنت ترجمته بالإنجليزية أطول بكثير من الرد اللي أنا باقولوا لك بالعربي.

أفهمتها أني أطيل في الرد عن عمد حتى لا يفلت مني معني أو من المراسل.

ظهر عليها الاقتناع، واستمر الحديث، وأذكر أن آخر سؤال وجهه إليها المراسل:

ـ ماذا تفعلين إذا حققتم الانتصار على إسرائيل بالسلاح السوفيتي؟

أجابت بتلقائية مدهشة.

ـ أغني للشعب السوفيتي في شوارع موسكو.

ويبدو أن نشر الحديث بهذا الوضوح، لم يجعل القيادة السوفيتية تنتظر حتى يتحقق النصر، فقد وجهت الدعوة إليها كي تغني للشعب السوفيتي في موسكو وليس في شوارعها.